طرائف من العصر المملوكي :

التـــــورية

للأستاذ محمود رزق سليم

التورية ضرب من البديع ، والبديع — بلاريب — فن جميل من فنون القول . سواء اختلفت النظرات إليه أم ائتلفت . إذ الفن في جوهره مظهر الفنان ومستجاب وحيه ومرتاض عاطفته به يصور وجدانه ويرسم فكرته ، ابتغاء التأثير في سامعه وهو في هذا يجري وفق ذوقه ويسير قيد مزاجه . فإذا نهج على قواعد أخرى فإنما هي قواعد قد ارتضاها هذا الذوق ، واطمأن إليها هذا المزاج . فلا عليه إلا أن يصور ويرسم . فإن بلغ فيه من سامعيه ومعاصريه حد الإعجاب ، فذلك عهده به وأمله فيه ورجاؤه منه . وإلا فقد بذل ما استطاع ، وقدم ما قدر عليه . وهو بين هذا وذاك فنان لا يغض من فنه نقدنا قد ولا إزراء مزر .

ولقد كان فن البديع أغلى فنون الحديث ومسالك الأسلوب عند أدباء العصر المملوكي وشعرائه . ملك على القوم أحلامهم وذلل أقلامهم فلا تجري إلا بين أرسانه ، ولا تجول إلا وسط ميدانه ، فوردوا موارده وعنها صدروا . ومدوا موائده وإليها ابتكروا . وكانوا بذلك أدنى أدباء عصر إلى تمثيل أهله ، وأقرب شعراء حقبة إلى تصوير معاصريها .

نقول ذلك ، لا على سبيل المبالغة ، بل على سبيل الحق والصدق. ذلك أن الشعب المصري طبع من عهد بعيد على أن يسلك في حديثه مسالك البديع ترفيها للخطاب ، وتجميلا للألفاظ ، وتجميماً للمعاني ، وإلماعا إلى الذكاء وتوقد الذهن ، وإشعاراً بحضور البديهة . فهو يجنس ويورى ويطابق ويقتبس ويضمن ، ولا يني يبعث في خلال ذلك النكتة إثر النكتة والفكاهة عب الفكاهة ، فيها دلالات عدة واتجاهات شيء ينم عنها اللفظ بمنطوقه مرة وبمفهومه مرة وبملابساته مرة ، وهكذا .

لا نحاول هنا أن ندرس مبعث هذه الروح فيه ، ولا أن نتتبع أسبابها . ولا نحاول أن نرجعها إلى عواملها الطبيعية من ذكاء ، أو طيب عيش أو طيب مناخ ، أو إلى عواملها الاجتماعية من كبت عاطفة أو مقاساة حرمان أو كمون التياع . أو من جب في لذة ، أو تطرف في ترف ، أو غلو في سرف . أو غير ذلك مما يتطلب له المرء مخرجاً في القول فلا يجد إلا هذه الضروب البديعية ، ففيها له التنفس والمراح . يجمع في أحدها المديد من المعاني ثم يترك السامع يقلبها بين يديه ويختار من بينها ما يلذله ويروقه ، فهو بذلك يحمله على التفكير معه ، ويدفعه إلى مشاركته ، ويسري بخياله إلى شيء التصورات ، ويتنقل به بين مختلف المعاني ، ويكفيه بذلك فنا .

سرت هذه الروح في الشعب خلال حديثه حتى كانت له سمتاً وشاوة ، وعرفت عنه منذ أمد ، ونمت نمواً عجيباً في العصر المملوكي . وامل حياة الزخرف والدهان ، التي كان يفيض بها العصر ، كان لها أثرها في هذه النمو العجيب ، الذي نضج على أدباء العصر وشعرائه فكانوا — كما ذكرنا — أدنى إلى تمثيله وتصويره .

موائد طويلة ومقاعد من خشب في قاعة كبيرة استوعبت مئتين من الآباء والإخوان مع ستة من الضيوف جُعلت في وسط القاعة ، وحولنا من الجهات الأربع سكان الدير ، وقد أخذوا أماكنهم في نظام عجيب . وتصدر القاعة الأب الكبير ، فلما أذن لنا ارتمينا على مقاعدنا من غير أن نرفع البصر أو نحرك عضواً من الأعضاء نستمع إلى الإنجيل يتلى علينا من منبر عال باللاتينية ثم بالألمانية . وطاف الإخوان بالأواني يحملون العشاء فأصبنا ماء ساخناً يسمونه حساء ، وسلطة من العشب الأخضر عليه ماء وملح ، ثم طبقاً من البطاطس المطبوخ ، وختمنا بالحلوى وهي من الخبز الأسود قد تناثرت على بعض أطرافه ذرات من السكر . ولكننا لم نر اللحم ولم نذقه فهو عنا غريب .

وانتهى العشاء الكامل الشامل فأرسلنا الشكر إلى الباري وخرجنا كما دخلنا في نظام جميل ، وكل يهنيء رفيقه على الصحة ويسأله عن شهيته في أكلة اليوم — على عادة الألمان في آدابهم وولائمهم — .

لم أبال بهذا الغذاء أكان دسماً أم لم يكن لأني أمنى النفس بغذاء الغد من مخطوطات العرب !

فإلى الغد أيها الآباء ! ..

سامي الدهان

واعتقادى أننا — معشر المصريين — لا نزال حتى اليوم ندرج فى هذه المدارج ، ونطرق تلك السبل ، برغم فراهة كتابنا وحدق شعرائنا وحرية أدبائنا ، وإزاحتهم ربقة البديع عن أعناقهم وتغلغلهم وراء المعانى والأفكار ، وسـوقهم خلف الدقائق ، وأخذهم من الفلسفة وإمعان النظر بنصيب ، ظهرت عوارضه على إنتاجهم وأساليبهم . ولـكنى أعتقد أنهم — رغم حسناتهم تلك — لايمثلون بأساليبهم العصر الذى فيه يعيشون . ومن كان فى ريب من هذا ، فليسر فى طرقات القاهرة ، وليمر السمع إلى نكات العامة ومحاورات الباعة ومحادثات المارة . فليلج الأسواق الحافلة والمنتديات الحافلة وماشاكلها . فليصت إلى أساليب الناس فى الحديث ، وإلى مدى امتلائها بالتوريات اللطيفة والتضمينات الطريفة والتجنيسات والمطابقات والتلميحات وغيرها من محسنات البديع ، لاتكاد تخلو منها عبارة ، أوتفرغ منها إشارة . والجمهور فى ذلك يصدر عن طبع سليم وفطرة قويمة . فهو يعكس فى أسلوبه تصوراته الباطنة وانفعالاته الخفية الـكامنة — فإلى أى مدى سار أدباؤه المعاصرون مرآة له فى مسالك أسلوبه ومناهج حديثه ؟

ليست عندى ريبة فى أن أدباء العصر المملوكى أدنى إلى تمثيل عصرهم أسلوبا وتصويراً — كما ذكرت — وإذا كان الشعب فى مجموعه ذافن فى مسالك القول فهؤلاء كانوا ألسنته المتكلمة وعواطفه المـــترجمة . فهم بدورهم فنانون صادقون . ومصورون ماهرون .

وصحيح أن هناك من النقاد الحديثين من وضع لنقد عقياسا يعنى فيه بالبحث عن المعانى المبتكرة والتصورات الجديدة والأفكار المفيدة . كأنه يريد من الشعر ألا يكون إلا فلسفة وإلا حكمة وإلا مثلا ، وإلا دستورا صامتا من دساتير الحياة . وأن يكون كذلك فى كل عصر من العصور . وبهذا المقياس يزيف أدب العصر المملوكى ويزيف شعره ، حتى ليتساءل عن أدبائه وشعرائه ويقول أين كانوا يعيشون ؟

والحق أن جلال الأدب فى أسلوبه ، وجماله فى طريقة أدائه وأن صدقه فى أن يعبر عن عاطفة الأديب وشعوره ، وأن يحسن فى تصويره . ولاريب أن ضروبا كثيرة من البديع تعين الأديب على ماهو بصدده من فن فى التعبير والتصوير ، ومن أبرزها التورية والتضمين والجناس والطباق . وهذه كانت من أهم دعائم الأسلوب فى العصر المملوكى .

أنا لا أدافع عن البديع ولا أحدث عن مذهبى فيه . وإنما أحببت له العدل ، وأردت له الإنصاف . فقد كان مزاج الأدب وقوام الأسلوب فى عصر من العصور المصرية . ولم يكن ذلك غريباً منه حينذاك ، بل الغريب ألا يكون . وكيف كان إنتاجه فهو قمين بإعادة النظر فيه من مؤرخى الأدب بيننا . أحب ألا يتأبوا على البحث فيه ، وألا يمتروا فى حصافته قبل أن يبدءوا ببحثه فليعيدوا فيه النظر بعـد إحسان الظن به . ويقينى أنهم سينصفونه وسيجدون فيه شيئاً جديداً مفيداً ممتعاً .

والبديع بعد هذا كله ، أو قبل هذا كله ، فن — بلاريب — جميل ، كما أشرنا . وقد استطاع أدباؤه أن يبرزوا بصورة عملية واضحة ما فى هذه اللغة الـكريمة من مزايا ولطائف وضروب جمال فى تكوين ألفاظها وتناسق كلماتها . وأبانوا كيف أقدرهم هذا التكوين والتناسق على التلاعب بالأسلوب والإبداع فى الحديث ، فأظهروا ما خفى فى هذه الألفاظ من أسرار ، وأشعروا الناس بجمال الترادف والاشتراك والتضاد فيها ، وجلوا اللغة فى ثوبها المرن المطاط الذى كثيراً ما يتسع للمعانى المتنافرة التى تندعن الذهن حينا كيفية اجتماعها وطريقة تآخيها .

وكانت التورية أحب أنواع البديع عند أدباء العصر المملوكى وأجل مابرعوا فيه منها . وأفضل ما أبدعوا فيه المعانى ، وأجمل ما أحسنوا فيه التصوير ، لم يشذ منهم عن هذا النهج شاذ . وصحيح أن الصلاح الصفدى — كما بينا فى مقال النقد الأدبى — أعرم بالجناس وجن به دون أدباء عصره ، ولـكنه إلى جانب هذا كان من شعراء التورية . قال ابن حجة الحموى :

« هذا النوع — أعنى التورية — ماتنبه لمحاسنه إلا من تأخر من حذاق الشعراء وأعيان الـكتاب . ولعمرى إنهم بذلوا الطاقة فى حسن سلوك الأدب إلى أن دخلوا إليه من باب التورية فإن التورية من أغلى فنون الأدب وأعلاها رتبة وسحرها ينفث فى القلوب ، ويفتح أبواب عطف ومحبة . وما أبرز شمسها من غيوم النقد إلا كل ضامر مهزول . ولا أحرز قصبات سبقها من المتأخرين غير الفحول . »

وقال أيضاً : « وقع الإجماع على أن المتأخرين هم الذين سموا إلى أفق التورية وأطلعوا شموسها . وبازجوا بها أهل الذوق السليم لما أداروا كئوسها . وقيل إن الفاضل هو الذى عصر سلافة التورية لأهل عصره . وتقدم على المتقدمين بما أودع منها فى نظمه ونثره . فإنه — رحمه الله تعالى — كشف بعد طول التحجب سترحجا بها . وأنزل الناس بعد تمهيدها بساحاتها ورحابها . وممن شرب من سلافة عصره . وأخذ عنه وانتظم فى سلكه بفرائد دره : القاضى ابن سناء الملك ، ولم يزل هو ومن عاصره مجتمعين على دور كأسها . ومتمسكين بطيب أنفاسها . إلى أن جاءت بعدهم حلبة صاروا فرسان ميدانها . والواسطة فى عقد جمانها . كالسراج الوراق وأبى الحسين الجزار ، والنصير الحمامى وناصر الدين حسن ابن النقيب ، والحكيم شمس الدين بن دانيال ، والقاضى محيى الدين بن عبد الظاهر . »

وهؤلاء الأدباء الستة الذين ذكرهم ابن حجة هم من شعراء العصر المملوكى وفى نصف القرن الأول منه تقريباً . وقد توالى من بعدهم أدباء فحول آخرون هم حلبة ابن نباتة ومنهم الصفدى وابن الوردى وابن النباتة والحلى والاسعردى والعمرى والمعمار ، وتوالت الحلبات من بعدهم — كما سنبينه إن شاء الله فى مقال آخر — وكلهم يسير تحت راية التورية ، وعاصرهم فى بلاد الشام آخرون . قال الصلاح الصفدى يذكر بعضهم :

« وجاء من شعراء الشام جماعة تأخر عصرهم ، وتأرز نصرهم ولأن فى هذا النوع عصرهم وبعد حصرهم . كل ناظم تود الشعرى لوكانت له شعراً . ويتمنى الصبح لوكان له طرساً ، والغسق مداداً والنثرة نثراً . ماجلا من بنات فكره خوداً إلا شاب لحسنها الوليد . وسيرها فى الآفاق وبين يديها من النجوم جوار ومن الشعراء عبيد . كالشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصارى شيخ شيوخ حماة . والأمير مجير الدين بن تميم . وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى . ومحيى الدين بن قرناص الحموى . وشمس الدين ابن العفيف . وسيف الدين بن المشد . »

وقال أيضاً : « ولانقل أيها الواقف على هذا التأليف : لقد أفرطت فى التعصب لأهل مصر والشام . على من دونهم من الأنام . وهذا باطل ودعوى عدوان . وحمية لأوطانك وما جاورها من البلدان . فالجواب أن الكلام فى التورية لاغير . ومن هنا تنقطع المادة فى السير . ومن ادعى أنه يأتى بدليل وبرهان فالقياس بيننا والشقراء والميدان . »

وبعد فما هى التورية ؟ قال ابن حجة يعرف بها :

« هى أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان حقيقيان أو أحدهما حقيقة والآخر مجاز . أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية . فيريد المتكلم المعنى البعيد ويورى عنه بالمعنى القريب فيتوهم السامع لأول وهلة أنه يريد القريب وليس كذلك »

والتورية — كما يرى القارئ — تحتاج إلى إلمام باللغة وإلى نزعة أدبية سليمة ، وإلى لطافة فى الحس . وهى إحدى طرق أداء المعنى . والفرق بينها وبين أداء المعنى فى حيز الدلالات اللفظية هو الفرق بين الأدب واللغة . والمورى مجدد لأنه يضع أمام السامع صوراً من المعانى عدة متشابكة فى بعض أجزائها ، متماسكة فى بعض ملابساتها ، فيدفع السامع إلى التنقل بخياله والتجول بفكره بين صورها الشتى حتى يقع خاطره على المعنى المقصود ، دون أن يشعر بثقل أو يحس بجهد ، بل بالعكس يتنقل بينها كما يتنقل بين أجزاء روضة ، وبين ثنيات بستان ، ويكون لذلك أثره فيه فيلطف حسه ويرق خياله ويتسع تصوره ، وهذه دعائم نفسية تقوم عليها دولة الأدب . وقد نقل ابن حجة قول الزمخشرى فى التورية حيث قال : « ولا ترى بابا فى البيان أدق ولا ألطف من هذه الباب ، ولا أنفع ولا أعون على تعاطى تأويل المشتبهات من كلام الله وكلام صحابته رضى الله عنهم اجمعين . فمن ذلك قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » لأن الاستواء على معنيين أحدهما الاستقرار فى المكان ، وهو المعنى القريب المورى به الذى هو غير مقصود ، لأن الحق تعالى وتقدس ، منزه عن ذلك . والثانى الاستيلاء والملك وهو المعنى البعيد المقصود الذى ورى عنه بالقريب المذكور » — ويهمنا من كلام الزمخشرى حديثه عن التورية . أما ما استشهد به من القرآن الكريم ففيه نظر . لأنه كان يدين بالاعتزال .

ومع ذلك فيه نظر من ناحية أخرى ، إذ يعتبر تأويله هنا من باب الكناية مثلا لا من باب التورية . وهذا يجرنا إلى الإشارة إلى أن التورية — فى جوهرها وفيما نشعر — ليست فى حدودها الضيقة

التي وضعها فيها علماء البلاغة بل أنها أوسع نطاقا وأبعد آفاقا . أو أنها على الأقل ذات صلة وثقى بأنواع البلاغة والبديع ، كالكناية والمجاز والإلغاز والمحاجاة والتوجيه والتلميح والإبهام والجناس ، وأن بينها وبين هذه الأنواع أموراً متشابهة لانفرق بينها إلا دقائق معنوية ، وهذه الأمور تشعرنا بأنها جميعاً تمت إلى التورية بأوثق الصلات . على أن هذا موضوع يحتاج إلى بحث ومعاودة ونظر جديد . فلنتركه الآن لنطارف القارئ ببعض نماذج التورية التي أثرت عن أدباء العصر المملوكي ، وكثير منها في الغزل والوصف والشكوى والمدح والإخوانيات . ومنها ما يلي :

كان السراج الوراق مقيما بالروضة ، فكتب إليه نصير الدين الحمامي موريا بها فقال :

كم قد ترددت للباب الكريم لكي ... أبل شوق وأحيي ميت أشعاري
وأنثني خائباً مما أؤمله ... وأنت في روضة والقلب في نار

فكتب إليه السراج الوراق :

الآن نزهتني في روضة عبقت ... أنفاسها بين أزهار وأثمار
أسكرتني بشذاها فانثنيت بها ... وكل بيت أراه بيت خمار
فلا تغالط فمن فينا السراج ومن ... أولى بأن قال إن القلب في نار

وقال أبو الحسين الجزار موريا بصناعته :

إني لمن معشر سفك الدماء لهم ... دأب وسل عنهم إن رمت تصديقي
تضيء بالدم إشراقاً عراصهم ... فكل أيامهم أيام تشريق

وقال الجزار موريا بلفظ « المطوق » :

أنت طوقتني صنيعاً وأسمعتك شكراً كلاهما ما يضيع
فإذا ما شجاك سجعي فإني ... أنا ذاك المطوق المسموع

وقال ابن دانيال الوصلي موريا في « قوام » :

أيا سائلي عن قد محبوبي الذي ... فتنت به وجداً وهمت غراماً
أبى قصر الأغصان ثم رأى القنا ... طوالا فأضحى بين ذاك قواما

ومن توريات الشاب الظريف في كلمة « باقل » :

ولو أن قسا واصف منك وجنة ... لأعجزه نبت بها وهو باقل

ومن توريات جمال الدين بن نباتة في كلمة « راحة » :

يا غائبين تعللنا لغيبتهم ... بطيب لهو ولا والله لم يطب
ذكرت والكأس في كفي لياليكم ... فالكأس في راحة والقلب في تعب

وقال أيضاً في « الكحال » وهو مسمى به :

أرى جلستي عند الكحال تعيبني ... عيونا ونفسي بالملوم يفوت
وما تنفع الآداب والعلم والحجا ... وصاحبها عند الكحال يموت

وقال متغزلا موريا في « حمل وقد » :

سألت النقا والبان أن يحكيا لنا ... روادف أو أعطاف من زاد صدها
فقال كثيب الرمل ما أنا حملها ... وقال قضيب البان ما أنا قدها

وورى محيي الدين بن عبد الظاهر في « الأوراق » فقال متغزلا :

ذو قوام يجور منه اعتدال ... كم طعين به من المشاق
سلب القضب لينها فهي غيظى ... واقفات تشكوه بالأوراق

ومن طرائف التوريات ما خرج مخرج الجناس ، قال ابن حجة « قد تقرر أن ركني الجناس يتفقان في اللفظ ويختلفان في المعنى لأنه نوع لفظي لا معنوي . وهو نوع متوسط بالنسبة إلى ما فوقه من أنواع البديع : والتورية من أعز أنواعه وأعلاها رتبة فإذا جملت الجناس تورية انحصر المعنيان في ركن واحد ، وخلصت من عقادة الجناس » .

ومن جناس التورية قول بدر الدين الدماميني يصف ابن حجر العسقلاني :

حمى ابن علي حوزة المجد والعلى ... ومن رام أشتات المعالي وحازها
وكم مشكلات في البيان بفهمه ... تبينها من غير عجب ومازها

ومازها من ماز يميز أو بمعنى لم يدخله الزهو .

فأجابه ابن حجر بقوله :

روحي بدر أفق الندى ما أطاع من ... نهاه وقد حاز المعالي فزانها
يسائل أن ينهى عن الجود نفسه ... وها هو قد بر العفاة ومانها

ومانها ، من مانه بمعنى كفاه . أو مانها من النهى .

ويطول المقام إذا ذهبنا نتحدث عن التورية ونستشهد لأنواعها من شعر هذا العصر . فحسبنا ماس

محمود رزق سليم
مدرس الأدب بكلية اللغة العربية